The Critical Theory of The Frankfurt School and Its Impact on Shaping Cultural Criticism

Abdelghani FANNANI[1]

Faculty of Letters and Human Sciences, Moulay Ismaïl University

Meknes - Morocco

Science Step Journal / SSJ

March 2024/Volume 2- Issue 4

DOI: 10.6084/m9.figshare.25601220

To cite this article: FANNANI, A. (2024, March). The Critical Theory of The Frankfurt School and Its Impact on Shaping Cultural Criticism. Science Step Journal II (4), 287-296. ISSN: 3009-500X.

Abstract

The Frankfurt School presented a postmodern critical theory based on the critique of the systems that dominate Western culture and the undermining of bourgeois consumerist capitalist culture, to change society, ridding man of his alienation and of its reification and of achieving human liberation.

The cultural industry is a major theme in the work of the Frankfurt School. Horkheimer and Adorno presented it for the first time in their article under the title: The Culture Industry, the lights deceive the masses. Through this article, the two writers showed how capitalist ideology uses culture in its various manifestations, by linking it to industry, to impose its domination on the individual and re-educate them by stereotyping the thinking of individuals and accustoming them to conform to dominant ways of thinking, and thus transferring them from a state of relative freedom to pleasant slavery.

With this theory and its concepts, the Frankfurt School paved the way for a new criticism that went beyond aesthetic and artistic literary criticism of texts and was concerned with examining discourses to uncover cultural patterns hidden in the cultural subconscious hidden behind the aesthetic cover and pleading with the aesthetic to pass on their permanence.

Keywords

The cultural industry- the Frankfurt School- critical theory- alienation- reification. cultural criticism.

[1] fannania9@gmail.com

 - © 2023 SSJ. All Rights Reserved

النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت و أثرها في تشكيل النقد الثقافي

عبد الغني فناني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة مولاي سليمان، مكناس، المغرب

ملخص:

قدمت مدرسة فرانكفورت نظرية نقدية ما بعد حداثية تقوم على نقد الأنظمة المهيمنة على الثقافة الغربية، وتقويض الثقافة البورجوازية الرأسمالية الاستهلاكية، بهدف تغيير المجتمع وتخليص الإنسان من اغترابه وتشيئه وتحقيق التحرر البشري .

وتعتبر صناعة الثقافة موضوعا رئيسا في أعمال مدرسة فرانكفورت، قدمه كل من ماكس هوركايمر وتيودور أدورنو أول مرة في مقال لهما تحت عنوان: صناعة الثقافة، التنوير وخداع الجماهير. كشف من خلاله الكاتبان كيف استخدمت الإيديولوجيا الرأسمالية الثقافة بمختلف مظاهرها عن طريق ربطها بالصناعة، لفرض هيمنتها على الفرد وإعادة تربيته، من خلال تنميط فكر الأفراد وتعويدهم على التواؤم مع أنماط الفكر السائدة بتعطيل وظيفة النقد لدى العقل ونقلهم بالتالي من الحرية النسبية إلى العبودية الممتعة.

بهذه النظرية ومفاهيمها، مهدت مدرسة فرانكفورت لنقد جديد تجاوز النقد الأدبي الجمالي والفني للنصوص، واهتم بفحص الخطابات للنبش عن الأنساق الثقافية المخبوءة في اللاوعي الثقافي الثاوية خلف الغطاء الجمالي وتتوسل بالجمالي لتمرير ديمومتها .

الكلمات المفتاحية:

صناعة الثقافة_ مدرسة فرانكفورت_ النظرية النقدية_ الاغتراب_ التشيؤ. النقد الثقافي.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ISSN: 3009-500X
SSJ / Issue 4 –March 2024

مقدمة:

يعد النقد الثقافي أحد المناهج والاتجاهات النقدية التي ظهرت مع نهاية القرن العشرين، مهمته اكتناه الأنساق الثقافية المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، تلك الأنساق المخبوءة تحت أقنعة البلاغي / الجمالي. والنقد الثقافي حقل معرفي يحلل النصوص والخطابات الدينية والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية، بعيدا عن المعايير الجمالية والفنية، ومن تم فهو نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي.

وتعتبر مدرسة فرانكفورت أو معهد الأبحاث الاجتماعية من أبرز المدارس الفلسفية الغربية المعاصرة، وهي تسمية لمجموعة الفلاسفة وعلماء الاجتماع اليساريين الذين بدأ جيلهم الأول نشاطه النظري والتجريبي في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي مع تأسيس معهدهم: "معهد الأبحاث الاجتماعية" سنة 1923 بجامعة فرانكفورت. انصبت جهود المدرسة على نقد المجتمع الغربي الحديث ومؤسساته السياسية والأيديولوجية وأنظمته المعرفية، بقصد كشف تناقضاته وجعل التغيير الاجتماعي، وتحرير الإنسان المعاصر من أوضاعه المتسمة بالسيطرة الكلية والشاملة هدفا لها، من خلال تبني نظرية نقدية جديدة للمجتمع، خلافا للنظريات التقليدية التي سيطرت ردحا من الزمن، تكشف عن مظاهر الاستغلال والاغتراب والتشيؤ التي أفرزها مشروع التنوير نتيجة هيمنة العقلانية الأداتية. لذلك "يمكننا القول بأن النقد هو أهم ما يميز هذه المدرسة الفلسفية إلى درجة أصبحت تسمى لدى المشتغلين بالفكر الفلسفي المعاصر باسم النظرية النقدية"(بومنير، 2012، ص.12).

ينصب موضوع دراستنا هذه، على تحديد مفهوم صناعة الثقافة لدى مدرسة فرانكفورت وخاصة عند هوركايمر وأدورنو باعتبارهما أول من قدم المفهوم في مقال "صناعة الثقافة، التنوير خداع للجماهير" كشف من خلاله الكاتبان عن الآليات الخفية والمضمرة التي تنهجها وسائل الإعلام والسينما لتنميط وقولبة الفكر وطرق الاستهلاك، مستثمرة أنماط التسلية والمتعة التي تقدمها هذه الوسائل، ودور هذا المفهوم في التمهيد للنقد الثقافي كنقد جديد يغوص منقبا عن الأنساق الثقافية الخفية المضمرة بين طيات الخطاب، وتلك المسؤولة عنه والمحركة له، والتي لا يعلم بوجودها ولم ينتبه إلى أن الثقافة فرضتها عليه، متجاوزا النقد الأدبي والفني الذي ساهم في تكريس العمى الثقافي. وبناء عليه، فإن دراستنا ستحاول أن تسلط الضوء على الإشكالية التالية:

ما حدود مساهمة مدرسة فرانكفورت ونظريتها النقدية في صوغ مفهوم النقد الثقافي؟

لكن كون موضوعنا يندرج ضمن جهود المدرسة في نقد المجتمع الغربي الحديث ومؤسساته السياسية والإيديولوجية وأنظمته المعرفية بهدف كشف تناقضاته في إطار نظرية نقدية للمجتمع، استوجب علينا، أولا وقبل كل شيء، التعريف بمدرسة فرانكفورت ونظريتها النقدية للمجتمع التي كشفت مظاهر الاغتراب والتشيؤ التي أفرزها مشروع التنوير.

وتأتي دراستنا هذه في سياق تزايد أهمية البحث في النقد الثقافي ومرجعياته المؤسسة والحاجة المستمرة إلى مساءلة المفاهيم التي أسست له وبنت وجوده باعتباره حقلا معرفيا ومنهجا جديدا منفتحا على المتعدد والمنوع من المتون التي تحضر فيها الثقافة،

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

وبصياغة أخرى، الحاجة إلى نقد النقد الثقافي الذي يستوقفه ويفحص مرجعياته المؤسسة ويسائل مفاهيمه معرفيا وأخلاقيا حتى يتسنى تقويم ما آل إليه وتوجيه مساره.

1. النظرية النقدية عند هوركايمر وأدورنو:

عمل رواد مدرسة فرانكفورت: ماكس هوركايمر، والتر بنجامين، تيودور أدورنو وهربرت ماركوز على نقد الحضارة البرجوازية، التي انحرفت عن طريقها وسارت إلى هاوية اللاعقل بسبب عقلانيتها، والكفاح من أجل عالم يسوده الرشد ويختفي منه القهر والقمع. مستندين إلى روح الفلسفة الماركسية ومبتعدين عن مقولاتها التقليدية التي تركزت حول نقد الرأسمالية، ومتأثرين بآراء ماركس الذي يعتبر الإنسان يعيش اغترابا في هذه المجتمعات. لقد قامت النظرية النقدية على" نقد العلاقات المغتربة والمسببة لاغتراب الإنسان في المجتمعات الرأسمالية والصناعية القائمة على الشمولية والعقلانية التقنية والإدارية التي ادعت التقدمية والاستنارة"(مكاوي، 2018، ص.14).

باغترابهم كيهود مشتتين مضطهدين في أنحاء العالم، عالج كل من هوركايمر وبنيامين وماركوزا وأدورنو وفروم مفاهيم الثقافة والسيطرة والهيمنة والاغتراب والتشيؤ والعقلانية الأداتية والتقنية وغيرها بواسطة ممارسة النقد السلبي ومحاولة إثبات أن المشروع الثقافي الغربي هو مشروع إيديولوجي في شموليته، يهدف إلى تبرير التسلط والهيمنة وجعله عقيدة وحيدة للمجتمع الغربي الذي كانت تنظر إليه المدرسة "بوصفه كلا ضديا حافلا بأشكال التناقضات وضروب الصراعات الأهوائية والفكرية المختلفة"(مفرج، 2011، ص.115).

والمدرسة في نشأتها، لم تتضمن رؤية نقدية واضحة موحدة يمكن إدراجها ضمن توجه فلسفي واحد أو ضمن مدرسة، بل كانت مجموعة من الأفكار والنظريات المتعددة والمختلفة والمشتتة، ولم تكن نظرية نقدية واحدة، بل كانت نظريات نقدية عديدة لمنظرين نقديين مختلفين. إلا أنهم عالجوا قضايا أساسها نقد الواقع السياسي والاجتماعي، مستثمرين مفاهيم مثل الهيمنة والتسلط والاغتراب والتشيؤ، الأمر الذي دفع بتجاهل الاختلافات القائمة بين مختلف مفكريها.

انتقد ماكس هوركايمر النزعة الوضعية التي وجهت الفكر نحو الوقائع واهتمت بتصنيفها وترتيبها قصد البحث عن القوانين التي تحكمها باعتماد المنهج العلمي، مميزة بين المسائل العلمية الموضوعية، وما يسمى بالقيم المتسمة بالذاتية كقيم العدالة والحرية والسعادة والتسامح التي استبعدتها من مجال البحث العلمي، فاعتبرها هوركايمر "تعامل البشر بوصفهم حقائق وأشياء مجردة داخل نطاق محدود ومخطط من الحتمية الميكانيكية"(بومنير، ص.12). فلا اعتبار عندها للقيم الإنسانية التي طالما دافع عنها فلاسفة التنوير لكونها تخالف العقل والتجربة والموضوعية. في حين أعلت من دور المعرفة العلمية والتقنية وانتقصت من دور الفكر الفلسفي الذي تعتبره منفصل عن الواقع أو متعال عنه أو أنه لا ينسجم مع الفكر العلمي الذي يروم دفع الإنسان إلى التقدم العلمي والمادي.

لقد حمل هوركايمر الوضعية المسؤولية عن الانتكاسات التي عرفتها الإنسانية على مستويات اجتماعية وسياسية وثقافية عدة والتي أدت إلى أفول العقل l'éclipse de la raison وهو عنوان لأحد أهم كتبه، أين درس مفهوم العقل في تاريخ الفلسفة الغربية، واعتبر

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

أن تدهور العقل الموضوعي وتحوله إلى عقل أداتي حدث بعد صعود عالم الصناعة النازية وتشكل عالم القوة والجبروت الذي يسعى إلى تحقيق المصالح المادية التي تعمل على تدمير العقل، ومن ثم يصبح الإنسان مجرد موضوع للسيطرة، والعقل آلة لها. مسلما أن كل الفلسفات الإجرائية والتي من ضمنها البراغماتية هي تعبير عن العقل الأداتي السيء الذي لا يعترف بالإنسانية ولا الشفقة أو الرحمة، ويبقى هدفه هو الاستفادة والربح.

قبل "أفول العقل"، نشر هوركايمر مجموعة من المقالات بمجلة المعهد والتي جمعت في مجلد تحت عنوان "النظرية النقدية"، تناولت موضوعات متنوعة كالثقافة الجماهيرية والسلطة والهيمنة والوضعية المنطقية والمادية الجدلية وهي موضوعات تأتلف تحت سقف النظرية النقدية التي حددها بوصفها نقد الإيديولوجية أو نقد المنظومة الفكرية السائدة في المجتمع الغربي ونفيها وسلبها من أجل مجتمع إنساني وعقلاني حر.

أكمل هوركايمر في كتابه النظرية التقليدية والنظرية النقدية بناء منهجه النقدي وناقش مسألة التسلط العسكري والمشكلة الاقتصادية التي تشل الحياة الاجتماعية، وبين "كيف سيفضي اقتصاد التبادل بالضرورة إلى تفاقم تناقضات المجتمع ومن ثمة إلى إثارة حروب وثورات في عصرنا"(هوركايمر،1990، ص ص.53. 54). ففي هذا الكتاب انتقد هوركايمر النظرية التقليدية في التفكير التي تنفصل عن الواقع المادي وتتواطأ مع أشكال القهر والقمع التي تمارسها الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية و"حدد خطوطا لاتجاهات جديدة تتوخى النقد التحليلي للواقع ولحركية المجتمع والسياسة"(بن مسمية،2020، ص.40). وأكد صلتها وارتباطها بالممارسة، أي ضرورة ربطها، باعتبارها نظرية اجتماعية، بالقوى الثورية القائمة داخل المجتمع، وتحويل، بذلك، المعرفة العلمية من مجرد نشاط عقلي نظري محصور في أروقة الأكاديميات إلى أدوات للنقد الاجتماعي والسياسي المباشر ترصد معاناة الإنسان المعاشة وتكشف عن المصالح الذاتية والأيديولوجية التي لا تناسب القيم الإنسانية، فضلا عن التصدي لمختلف الأشكال اللامعقولة التي سعت الطبقة المسيطرة أن تلبسها للعقل أو أن تؤسس اليقين بها على اعتبار أنها ليست سوى أدوات لاستخدام العقل في تدعيم النظم الاجتماعية القائمة، وهو ما دعاه هوركايمر بالعقل الأداتي.

ويمثل أدورنو استمرارا لعمل سلفه ماكس هوركايمر. رفض بدوره التعبير عن العالم على شكل مجموع الذي من شأنه أن ينفي الفردية والاختلافات. فقد كان أدورنو واعيا باختلافات الثقافة الغربية.

استطاع أدورنو أن يكشف عن أهمية الأدب والفن في سياق التناول الفلسفي التنظيري لأقطاب مدرسة فرانكفورت. عرف الأدب على أنه" نفي Négativite يتسم بمقاومته للإيديولوجية والفلسفة"(بسطويسي، 1993، ص. 126). متجاوزا جوانبه الفنية والجمالية وباحثا عن أنساقه المخبوءة تحت غطاء اللغة، فدراسة النص، حسب أدورنو، كشف عن إيديولوجيته وتسلطه التي مررها عبر جماليته وفنيته، فالفن والأدب هما" المجال الوحيد الذي يمكن أن تتحقق من خلاله مقاومة الهيمنة والتسلط"(مفرج، ص. 120).

وبظهور كتاب جدل التنوير، (1944) الذي كتب بالاشتراك بين ماكس هوركايمر وتيودور أدورنو، أعاد أدورنو رسم انتصار التنوير وتعاسته في آن واحد، فقد انتقد العقل التنويري الذي عمل على إخضاع كل شيء ووصفه بأداة التسلط، فعن طريق العقل

 - © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ISSN: 3009-500X
SSJ / Issue 4 –March 2024

بأدواته المعرفية من مفاهيم ومقولات، تتسلط الذات على الطبيعة من خلال معرفة قوانينها ونظامها. إن العقل الذي ظهر في عصر التنوير حسب أدورنو في ظل الفلاسفة روسو، وكانط، وفولتير، وهيوم، والذي تم تحريره من الأساطير، لم يؤد نتائج إيجابية بل تحول إلى قوة غير عقلانية تسيطر على الطبيعة والإنسان. بل "إن علاقة الاستقلال عن الطبيعة هو السيطرة عليها، دون ذلك لا يوجد العقل"(هوركايمر، أدورنو، 2006، ص. 62). فهذا العقل، حسب أدورنو، الذي استهدف في بداية الأمر إخراج الإنسان من حالة القصور والعجز عن استعمال عقله دون إرشاد الغير كما قال كانط (كانط، 2005، ص.85)، أي تخليصه من الخرافات والأساطير ومساعدته على تحقيق تقدمه ورفاهيته، تحول إلى أداة سيطرة كلية على الطبيعة والإنسان بشكل أدي إلى نفي الحرية و"أفرز أشكالا جديدة من الهيمنة والسيطرة على الإنسان، ولم يعد أداة تحرر وانعتاق، بل على العكس من ذلك حرض على إخضاع كل شيء متفرد تحت لوائه"(بومنير، 2011، ص. 17). ولذلك نجد أن التقدم أدى إلى عكسه، وأن التنوير أدى إلى الشمولية، فالمجتمعات الحديثة التي تسعى إلى الفردية همشت الفرد وأقصته.

لم يكن أدورنو معاديا للعقل عامة، وإنما للعقل الأداتي الذي انحرف عن مساره ليصبح أداة للسيطرة والقمع في خدمة القوى والمؤسسات المسيطرة كالنازية والفاشية والستالينية الشيوعية، فانتهى إلى البربرية بتدميره لذاته، وأفشل مشروع الحداثة ومعها وعود فلاسفة التنوير في تحرير الإنسان من العبودية وتحقيق السعادة. فقد انصب نقد أدورنو على هذا العقل الأداتي الذي تسبب في أزمات عميقة في المجتمعات الغربية المعاصرة، وتوجه إلى نمط آخر من العقل وهو العقل الجمالي الذي سيحرر الإنسان من السيطرة والقهر.

2. صناعة الثقافة وسيلة لتنميط الفكروالاستهلاك:

تعد صناعة الثقافة موضوعا رئيسا في أعمال مدرسة فرانكفورت، تم تقديمه أول مرة في مقال لهوركايمر وأدورنو تحت عنوان "صناعة الثقافة، التنوير خداع للجماهير" كشف من خلاله الكاتبان عن الآليات المضمرة والخفية التي تنهجها وسائل الإعلام والسينما لتنميط وقولبة الأفكار وطرق الاستهلاك، حيث استدرجت هذه الوسائل الجماهير إلى ثقافة الاستهلاك مستغلة التسلية والمتع السطحية والمبتذلة التي تقدمها الثقافة الشعبية، فأفقدتهم الاهتمام بطبقتهم وبالحاجة على التغيير السياسي والاقتصادي. لتصبح بذلك ثقافة الجماهير متطابقة في ظل هذا الاحتكار ومتفسخة نتيجة الاندماج بين الثقافة والتسلية.

فخلافا للاعتقاد بأن المجال الثقافي هو أحد المجالات التي يمكن فيها الفكاك من الهيمنة، أضحى، حسب أدورنو وهوركايمر، يخضع، هو الآخر، لعملية العقلنة كباقي مجالات الحياة الاجتماعية الأخرى، بل "أضحى النشاط الثقافي في حد ذاته عملية إنتاج صناعي جرت الناس عميقا أكثر من أي وقت مضى إلى نظام مرشد وأعطتهم فكرة خاطئة عن الخلاص والحرية"(الخليل، د.ت، ص. 206). ولم تعد الأفلام والمذياع تتظاهر بأنها فن، بل أصبحت عملا تجاريا محضا تحول إلى إيديولوجيا لتسويغ التفاهات. "إن الثقافة عبارة عن سلعة ظاهرة التناقض. فهي تخضع كليا لقانون التبادل مع أنه لا يمكن تبادلها بحد ذاتها، إنها سلعة تذوب بشكل أعمى في الاستهلاك رغم عدم قابليتها لذلك. لذلك فهي تذوب مع الإعلان الذي يصبح أكثر فأكثر حضورا حتى يبدو احتكارها نوعا من العبث (هوركايمر، أدورنو، ص ص. 188، 189). فتحول الثقافة إلى سلعة استهلاكية وارتباطها بمنطق السوق والتجارة وفق العرض والطلب وابتعادها

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ISSN: 3009-500X
SSJ / Issue 4 –March 2024

عن وظيفتها الرئيسة المتمثلة في الإسهام في اكتساب المعرفة والحصول على المعلومة أدى إلى ظهور آفات الاغتراب والتشيؤ، ودخول الثقافة الإنسانية معترك البيع والشراء، جعل منها سلعة تخضع لتقنيات الإشهار والتسلية والإثارة، التي تستغلها الدولة والنظام الحاكم للتحكم في الفكر والاستهلاك وتوجهه.

هذه الصناعة الثقافية، وضحها أدورنو وهوركايمر عندما تحدثا عن مفهوم الإدماج L'intégration بوصفه "آلية للالتفاف على العنف الثوري الذي يمكن أن يأتي من الخطر العمالي"(بن مسمية، ص. 117)، وتقتضي الآلية تزويد العامل البروليتاري، الذي لا يملك إلا قوة عمله وقوت يومه، بأدوات يرتبط بها أو وهم يعيش من أجله يجعله لا يفكر في الثورة، وبالتالي الحفاظ على النظام القائم. وعملية الإدماج هذه، ولكي تؤدي وظيفتها، يتم إدماجها في عملية الاستهلاك عبر إدخال طبقة البروليتاريا في دوامة الرغبات المتجددة التي تقتل كل تطلع إلى التحرر والانعتاق والثورة. إنها صناعة الثقافة أو الثقافة الجماهيرية التي تصبح معها الثقافة سلعة للاستهلاك "ووسيلة للتنميط، وجعل الإنسان يرتبط بأوهام النجم السينمائي أو صيحات الموضة العالمية"(بن مسمية، ص. 118). لقد عملت كما يؤكد ليونتال Leo Lowenthal على عدم تسييس الطبقة العاملة، محددة أفقها بالأهداف السياسية والاقتصادية التي يمكن تحقيقها ضمن الإطار القمعي والاستغلالي للمجتمع الرأسمالي بإنتاجها ثقافة تتميز "بالمعيارية، والنمطية، والمحافظة، والكذب، والتلاعب بالبضائع الاستهلاكية"(ستوري، 2014، ص. 111). بعبارة أخرى، إن صناعة الثقافة لا تشجع بل لا تسمح للجماهير بالتفكير فيما وراء حدود الحاضر، عن طريق تقزيمها للخيال ومنعها بروز رغبات أكثر جوهرية. وكما يرى هربرت ماركوز HERBERT MARCUSE في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" أن منتجات صناعة الثقافة "تكيف الناس مذهبيا وتشرطهم، وتصنع وعيا زائفا عديم الإحساس بما فيه من زيف، وعندما تصبح هذه المنتجات المفيدة في متناول عدد أكبر من الأفراد المنتمين إلى طبقات اجتماعية أكثر تعدادا، تخلق قيم الإعلان والدعاية طرزا للحياة وهو بلا أدنى شك طرز للحياة أفضل من السابق، لكنه من هنا بالذات يكتسب مناعة ضد كل تغير نوعي. وهكذا يتكون الفكر والسلوك الأحادي البعد (ماركوز، 1988، ص. 48).

من بين وسائل التنميط التي انتقدها أدورنو وهوركايمر، الراديو والتلفزيون والسينما (ويمكن أن نضيف إليها اليوم وسائل التواصل الاجتماعي خاصة الفيسبوك) واعتبرها وسائل براغماتية للترويج والدعاية الضاغطة على العقول من أجل قولبة الأفكار وتنميط الاستهلاك والذوق، وتدجين الأفراد عبر التسلية والمتعة والتقنية، لتصبح كل اختيارات الناس متحكم فيها مسبقا، فتتعطل، بذلك، لدى العقل وظيفة النقد والتشكيك والتفكيك، وينتقل من الحرية إلى العبودية. "فلا حاجة لخيال المستهلكين ولا لعفويتهم في هذه الثقافة للعودة إلى آليات نفسية، فالمنتوجات بذاتها، ويأتي الفيلم في أولها، قد تألفت بحيث تصيب هذه الآليات بالشلل"(هوركايمر، أدورنو، ص. 148).

لقد أصبحت ثقافة الجماهير متطابقة في ظل الاحتكار الذي سعى إلى تنميطها، ومتفسخة نتيجة لاندماجها بالتسلية. وغدا اتحاد صناعة الإعلان بصناعة الثقافة "نهجا تقليديا للتأثير في الناس والتلاعب بهم"(بوتومور، 2004، ص. 94)، بل إن هذا "التقارب الغريب بين الثقافة والصناعة هو وحده الذي أنصف حقيقة أن الثقافة لم تعد ذلك التعبير الإنساني الحي عن التكامل الاجتماعي بقدر ما غدت نتاجا للمصالح التجارية المتداخلة قائما على التلاعب والمضاربة"(آلن هو، 2010، ص. 62).

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ISSN: 3009-500X
SSJ / Issue 4 –March 2024

هذا التطابق كرسته الأفلام وقصص المجلات التي لا تعتمد الموضوع أو المادة في إنتاجها، بقدر اعتماد تصنيف المستهلكين وتنظيمهم وفرزهم، فتقوم بتمرير المادة نفسها للجميع في مرحلة أولى، ثم تركز على الفروق والاختلافات في مرحلة ثانية، لتحدد لكل فرد ما ينسجم ومستواه وطبقته "ويظهر المستهلكون على شكل إحصائيات في بيانات المؤسسة البحثية، ويتم تقسيمهم، بحسب مجاميع الدخل المالي، إلى مجالات حمراء وخضراء وزرقاء"(هوركايمر، أدورنو، ص ص. 40، 41)، يتم استعمالها واستغلالها في الدعاية وإعادة التربية لهؤلاء المستهلكين.

لقد حارب أدورنو الثقافة الشعبية بوجه عام، سواء كانت مذياعا أو سينما أو موسيقى أم قصص المجلات. أو بالأحرى حارب زيف استعمال كلمة "الشعبي "في وصف هذه الإنتاجات. حسب أدورنو، لكي تكون الثقافة شعبية، لابد أن تنبع من حياة أولئك الذين ينتجونها، لا أن يتم نسبتها إليهم بعد صناعتها. كما أن صناعة الثقافة تفرض محتواها على المستهلك، عكس الثقافة الشعبية التي "تعبر عن تجربة شعبها الحية المعيشة، عن حبه، وكراهيته، وحزنه، وتمرده، ومقاومته. ولكن ما إن تتوسط صناعة الثقافة ذلك كله حتى يغدو شيئا آخر مختلفا: سلعة"(آلن هو، ص.107)، حيث تصبح ثقافة متحكم فيها من النخبة الحاكمة التي تجعلها أداة تنمط من خلالها قيم وسلوك الطبقة العاملة وتقزم دورها في مجرد تلقيات سالبة.

إن جعل الأشياء متماثلة، أي إضفاء الطابع المعياري عليها هو أحد سمات منتجات صناعة الثقافة. فقد نزعت السلع الثقافية إلى التشابه والتماثل في سعيها إلى "البحث عن طرائق فاعلة في تطويق الجمهور، وفي محاكاة ما سبق أن استعبدهم"(آلن هو، ص. 109)، فبمجرد متابعة الدقائق الأولى لفيلم، وبمجرد معرفة بطله، أمكننا التكهن بمضمونه وبنهايته. لأن جل هذه الأفلام تركز على الأثر وقوة الشخصية وقدرتها على الاستحواذ على الجمهور أطول وقت ممكن أكثر من العناية بالمادة الإبداعية. هذا المنتج المعياري لا يتطلب من المستهلك أي تركيز فعلي لامتصاصه، لأنه يكون قد هضم وحفظ ما سيتبع بعد معرفة نوع الفيلم، مثلا، أو بطله، ولأنه ما من شيء بهذا الفيلم سيدفعه إلى التفكير. "إن ضروب الخداع الواضحة، كالحيل السمعية والمؤثرات البصرية الخاصة، وشخصية النجم في الفيلم، حاضرة ومستعدة لكي تستحوذ على الجمهور وتهزه"(آلن هو، ص. 115).

وتعد "الفرادة" أو "الفردنة" سمة أخرى لمنتجات صناعة الثقافة، فهي تخلق سلعا تبدو وكأنها تخاطب الفرد وتهتم به في شخصه. أو أنها تخاطبه كما لو أنها فريدة، ما يجعل الفرد يشعر بالفرادة في استهلاكها، أو يشعر بأنه مميز يستهلك منتوجا مميزا. إلا أن أدورنو يعيب على المستهلكين مواصلة امتصاص المنتوج واستهلاكه رغم إدراكهم حقيقته. "لعلنا ندرك حقيقة سخف تلك المسلسلات الخفيفة بما فيها من وضوح خطوط قصتها وتلفيق مغامراتها، إلا أننا نواصل مشاهدتها وتتبع حلقاتها"(آلن هو، ص. 116). وهذا راجع إلى قدرة صناعة الدعاية على السيطرة على مخيلاتنا ودفعها إلى الإدمان. إن صناعة الثقافة حسب أدورنو لا تخدع الناس فحسب، بل تجعل هذا الخداع ملتبسا على أنه ضرب من التنوير.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

خاتمة:

هكذا قدمت مدرسة فرانكفورت صيغة تبين الأدوار المهمة التي تلعبها ثقافة الميديا في المجتمع الرأسمالي، وبسطت نموذجا لنوع متقدم لثقافة تجارية وتكنولوجية تخدم مصالح الشركات المهيمنة عبر تنميط الاستهلاك وزيادته، و"وضحت[المدرسة] الطرق التي تحولت بها التكنولوجيا إلى قوة إنتاج كبرى، ونمط تكويني للتنظيم والتحكم الاجتماعيين" (كلنر، 2017، ص. 251)، حيث أنتجت ثقافة جماهيرية نمطت فكر الأفراد وعودته على التواؤم مع أنماط الفكر السائدة، فكانت بالتالي أداة قوية للسيطرة الاجتماعية والهيمنة.

بذلك يعتبر مفكرو مدرسة فرانكفورت في نظرياتهم عن صناعة الثقافة والثقافة الجماهيرية، أول من قام بالنقد المنهجي للثقافة والاتصالات القائمين على الميديا، وبتحليل كل المنتجات الثقافية وربطها بالسياق السياسي والصناعي والتجاري. ومن الأمثلة العديدة على الدراسات التي قدمتها المدرسة، نذكر تحليلات أدورنو للموسيقى الشعبية ودراسات لوفينتال LOWENTHAL للأدب الشعبي ودراسات هيرتسوج HERZOG للمسلسلات الإذاعية ومقالة صناعة الثقافة لكل من أدورنو وهوركايمر، قام فيها رواد المدرسة بنقد الثقافة الجماهيرية التي عملت على توليد أنماط فكر وسلوك يتناسب والنظام السائد، والتنبيه إلى التحكم الكبير في الميديا (الإذاعة والتلفزيون) وأثره في إنتاج مجتمع استهلاكي يقوم على احتياجات ورغبات متماثلة يتم إنتاجها على نطاق واسع.

بهذا تكون المدرسة الألمانية قد ساهمت على نحو مباشر في صوغ مفهوم النقد الثقافي من خلال بحثها في عيوب المجتمع ومساءلة قيمه وسلوكه، ونقد الآليات الخفية التي ينتهجها الإعلام والسينما في زمن التقنية لقولبة الفكر وتنميط الاستهلاك، وهو الطريق نفسه الذي سلكه النقد الثقافي العربي اليوم مع مشروع عبد الله الغذامي وغيره الذي يبحث في عيوب الثقافة العربية ودور الثقافة التلفزيونية في السيطرة على تفكير البشر.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ISSN: 3009-500X
SSJ / Issue 4 –March 2024

قائمة المصادروالمراجع:

1. آلن هو. (2010). النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت، (ترجمة ث. ديب). مصر: المركز القومي للترجمة.
2. بسطويسي، ر، م. (1993). علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا. مصر: مطبوعات نصوص.
3. بن مسمية، ث. (2020). مدرسة فرانكفورت دراسة في نشأتها وتياراتها النقدية واضمحلالها. العراق: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
4. بوتومور، ت. (2004). مدرسة فرانكفورت. (ترجمة س. هجرس). ليبيا: دار أويا للطباعة والنشر.
5. بومنير، ك. (2011). تيودور أدورنو نقد العقل الأداتي. في ك. بومنير وآخرون، تيودور أدورنو من النقد إلى الإستيطيقا مقاربات فلسفية. الجزائر: منشورات الاختلاف.
6. بومنير، ك. (2012). قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
7. الخليل، س. (د.ت.) دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة. لبنان: دار الكتب العلمية.
8. ستوري، ج. (2014). النظرية الثقافية والنظرية الشعبية. (ترجمة ص. أبو الصبع، و ف. منصور). الإمارات العربية المتحدة: أبو ظبي للسياحة والثقافة.
9. كانط، إ. (2005). ماهي الأنوار؟ (ترجمة م بن جماعة). تونس: دار محمد علي للنشر.
10. كلنر، د. (2017). مدرسة فرانكفورت والدراسات الثقافية البريطانية الصيغة المفقودة. (ترجمة ك. أبو سحلي). مجلة فصول في النقد الأدبي، 3/25 (99)، 251.
11. ماركوز، هـ. (1988). الإنسان ذو البعد الواحد. (ترجمة ج. طرابيشي). لبنان: منشورات دار الآداب.
12. مفرج، ج. (2011). استطيقا أدورنو أو الفن بوصفه نقدا. في ك. بومنير وآخرون، تيودور أدورنو من النقد إلى الإستيطيقا مقاربات فلسفية. الجزائر: منشورات الاختلاف.
13. مكاوي، ع. (2018). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تمهيد وتعقيب نقدي. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي سي آي سي.
14. هوركايمر، م. (1990). النظرية التقليدية والنظرية النقدية. (ترجمة م. الناوي). المغرب: عيون المقالات للنشر.
15. هوركايمر، م. وأدورنو، ت. (2006). جدل التنوير شذرات فلسفية. (ترجمة ج. كتورة). لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved